مجلـة أبعاد / مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر
جامعة وهران2 - المجلد 05 - العدد 01 / جوان 2019
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

تحولات الخطاب العلماني في تأجيج الخطاب الديني: مقاربة حجاجية

Transformations of secular discourse in fueling religious discourse : Argumentation approach

د. طيب بن عون *

كلية الآداب والفنون واللغات، جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس - الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2019/08/14 **تاريخ القبول: 2019/06/12** **تاريخ النشر: 2019/06/30**

الملخص: لقد لعبت القوة والتفوق الغربين دورا بارزا في تقسيم العالم العربي / العربي الإسلامي من جانبين؛ أ- جانب الإغواء والانبهار لدى العلمانيين العرب .ب- جانب الضعف لدى العرب الإسلاميين. وبينهما هوة سقوط يحذر كل طرف من الوقوع فيها .

ويهدف البحث إلى سبر حقيقة بقاء الغرب السيد الذي يدير هذا الصراع الجدلي بعدما كان بينه وبين العرب/العرب المسلمين، صار بين العرب والعرب المسلمين، ثم بين المسلمين فيما بينهم. كل الفرضيات مطروحة، والبدائل معلومة وحاضرة، لكن يغيب العقل الذي يجسدها وهو محل الجدل والحجاج.

الكلمات المفتاحية: الخطاب العلماني؛ الغرب؛ العرب؛ التحوّلات.

Abstract : The power and superiority of Westerners has played a prominent role in dividing the Arab / Muslim Arab world from two sides: a. The seduction and fascination of the Arab secularists. Between them is a fall that warns each party from falling into it.

The research aims at probing the survival of the West, the master, who is led by the dialectical conflict after it was between him and the Arab / Muslim Arabs, between Arab and Muslim Arabs, and then between Muslims among them. All hypotheses are presented, alternatives are known and present, but the mind is absent, which is the subject of controversy and pilgrims.

Keywords : Secular discourse ; West; Arab; Transformations.

* الباحث المُرسل: tayebbenaoun92@gmail.com

مقدمة:

يرتبط مفهوم الخطاب بما بعد العهد البنيوي، أو ما يطلق عليه علماء النقد الغربي بالدراسات الثقافية التاريخانية بدلا من علم التاريخ . ففي خضم التحول الشامل للرؤية الحياتية، بحثا عن رواق إيديولوجي جديد يحتضن المعمورة في حضن خصوصيات مشتركة، ومبادئ يسير عليها العقل البشري دون الإفصاح عن حقيقة الخلفية لهدا الحضن، هل هو أيديولوجي بمعنى مذهبي / ديني، أم وضعي يذيب خصوصيات الآخر؟ أم هو مثاقفة ومواطنة تغريانه وتجذبانه حتى ينصهر في هــذا الحضن؟ أم هي علمانية شاملة عالمية، فرضت نفسها قسرا على كل مغلوب متقوي بخصوصيته. لكن في المقابل ما الذي يجعل هذا المغلوب المتقوي يتمنّع عن الانصهار في إطار المثاقفة والمحاورة؟

لعل هذه الأسئلة التي تشكل محور الإشكالية التي سيناقشها البحث،كما تعد السبب المهم لاختيار هذا العنوان كما أن المنهج الوصفي هو الكفيل بالإحاطة على هذا الحجاج متكئا علة الإجراء التحليلي، من أجل الخوض في مفاصل هذا الجدل المستمر.الذي رسم على أنه حوار بين الشعوب والحضارات، لكن باطنه إيديولوجي محض يسعى إلى تحقيق غلبة مستديمة للرجل الغربي بما لديه من إمكانيات مادية وفكرية.غير أن المغالبة أفرزت خصما عنيدا، يتقوى بمكتسبات دينية حقيقية، ومعرفية متعددة المشارب غذت أوصاله فتقوت وأبت الانحلال والخنوع ولو لحين. فكان الخطاب هو التواصل المعتمد بملء اتجاهاته ومكوناته.

مغذيات الخطاب

يوحي الخطاب في تعريفاته المتفرعة، بأنه شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب، ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه **أفترض أن إنتاج الخطاب في مجتمع ما، هو في الوقت نفسه إنتاج مراقب أو منتقى ومنظم ومعاد توزيعه، من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة.**[1]

1 فوكو مشال، نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص 9

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

إن الإجراءات التي توحي في خطاب مشال فوكو هي تقليمية بالدرجة الأولى، وانتقائية له، بحيث يسهل ليكون حضنا للمحاورة والمثاقفة من منظور العلّية، كما تمّ تفريغه من القوانين المؤثرة بشكل لاواعي في صيرورة المجتمع ومنتجاته الثقافية وغيرها.

لقد تمّ رسم جدلية الحوار بين الشعوب في إطارها الثقافي المعرفي،من منظور واحد ومحور ذي اتجاهين؛ فالمنظور علماني غربي شامل وخاص، والاتجاهان كلاهما يصبان في هذا المنظور، لكن اتجاه حاضن للآخر المؤيد والذي لا يجد ممانعة ولا مشاكلة إلا اللّمم، منها ما خص الجانب الاقتصادي من وجهة براغماتية، وهذا الاتجاه يشمل شعوب /أنظمة المحور الغربي العلماني الإباحي. أما الاتجاه الثاني هو الممانع /المستعصي نتيجة التركيبة /الشفرة الثقافية التي تكونه، ومن ثمّ كان التركيز عليه والتحامل ضده. لكن هذا التحامل أوجد مناصرين له، وهم قلة بما فيها السلطة التي تمشي على عكازين مختلفين في الحجم و السمك .كما أن محاور الجدل واسعة، ولعل من الضرورة بما كان أن تحصر في محور الشفرة الثقافية لتستبين الإشكالات والتنا فرات، وللانسجام في محور تحاوري يجد مغاليق خطابية متعددة تمنع من الانصهار في الحضن العولمي .

تبدو الشفرة الثقافية بمحوريها السلوكي و المعرفي صرحا شامخا يغطي كل الخصوصيات المكونة له. ولعل الأسس والمكونات لهذا الصرح، تختلف من محور غربي ومحور عربي /ديني /إسلامي، ومن ثم تبدأ المشاكلة و المآجة بحثا عن التعطيل الذي يمس جوانب كثيرة من المحور العربي (ديني إسلامي).

ينبغي أن يفهم الخطاب الغربي في سياقه الثقافي والسياسي، وإن كانت السياسة عنده تقوم على الشق الثاني من الثقافة /المعرفة المعلمنة، بحيث تعرف بالديمقراطية وتتسم بدرجة عالية من التعقيد في تكوينها الاجتماعي والاقتصادي نتيجة للمرحلة الحضارية، والتمدن النزوي الكثيف في تكوين نسيجه و **هذا ما استدعى على ما يبدو جهازا مفهميا ومنهجيا موازيا في التعقيد والدقة، لكشف الهيمنة المتوازية تحت السطح ومحاربتها** [1].

وقد ساعد في تكوين هذا النسيج المعقد تحولات كثيرة ومختلفة منذ عهد الأنوار، حين ألغيت سلطة الكنيسة وفرش البساط العلمي كلبنة انطلاقة نحو النزوة الدنيوية.

[1] المرجع السابق ص 30

حين اجتهد كوكبة المنظرين المحدثين والمعاصرين الغربيين في تأصيل الخطاب الجديد وتمريره عبر قنوات الأدب،و الذي ذاب في ثنائية النص والخطاب لعل أبرزهم ميشال فوكو، بول ريكور، ج.ب. سارتر، ج.دريدا، ج.لوز، ر.بارث،جوليا كريستفا، مشال آدم، جرار جينات. في المقابل يجد المحور العربي /الديني الإسلامي نفسه وراء قفص الاتهام كونه عاجز عن مسايرة هذا الاتجاه العلماني.

وقد وُسم بوصفات عدة فأمام الضعف الذي استحوذ عليه منذ دولة الموحدين في رؤية مالك بن نبي والذي غلب على جينات نسيجه، يقف مفكروه موقف المختلف والحائر، فالاختلاف ظاهر بين مؤيد للاندماج والانصهار، ورافض له، فأما الموقف الحائر يرى إمكانية المعايشة ولكن ما السبيل إليها، ويعجز عن إزالة العوائق لأسباب منها ضعفه، وعدم مناصرة السلطة **العلمانوية**. (قياسا على الإسلاموية).

لم يكن الاختلاف بدعة غربية ولا سمة مستجلبة، وإنما هو قانون فطري وضع كجهاز في التركيبة البشرية من قبل الخالق .ولقد أنصف علماؤنا الأجلاء، ومفكرونا القدماء هذا القانون ونسجوا قوانينه، وبينوا وأفصحوا عن مستويات المعرفة وربطوا العلاقة بينهما. ولعل ابن الرشد الرائد في هذا العلم وصاحب الباع الطويل في رسم الاختلاف من منطلق التعددية في مجال الحياة، بل في شأن الدين و العقيدة وهذا ثابت في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ سورة هود/الآية 119- 118

ولقد أورد ابن رشد الخطاب /الاية الموجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كيفية الدعوة إلى طريق الله المستقيم فكان قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل/الآية125 في هذا الشأن يقول ابن رشد: إن تضمن الخطاب الإلهي لأنماط الدعوة الثلاثة . الحكمة والموعظة والجدل . يؤكد التسليم بتعدد الطباع . ولم يكن للخطاب الإلهي أن يتجاهل هذا التعدد الذي يرتد إلى الطبائع التي خلق الله الناس عليها من جهة، وإلى اختلاف المرجعيات الاجتماعية والمعرفية من جهة أخرى.[1]

[1] ينظر حامد نصر أبو زيد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 /2000 ص60

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

كما يعزى إلى هذا التعدد في الطبائع، والاختلاف في المرجعيات، ثنائية الظاهر والباطن التي تضمنها الخطاب الإلهي /القرآن. والتي تسمح لكل البشر على اختلاف مستوياتهم بأن يكونوا مخاطبين بهذا الخطاب. يقول ابن رشد **إن السبب في ورود الشرع فيه الظاهر والباطن هو اختلاف نظر الناس وتباين قرائحهم في التصديق، والسبب في ورود الظواهر المتعارضة فيه هو تنبيه الراسخين في العلم على التأويل الجامع بينها.**[1]

وفي هذا السياق يلعب أهل العلم والراسخون فيه دور البرهان العقلي، الذي يستند على الحقيقة في رفع اللبس والحيرة عن مستوى يتفق فيه الجميع على استحالة حمله على الظاهر، بحيث ثبت أن كان لهم دورا تنويريا في عهد سابق، في تبيان مشكلات الاختلاف وحتميتها في إطار ما رسمته الشريعة، وما أباحت به من الكسب المادي والمعنوي في بناء النسيج البشري السوي إلا ما شذّ منه، وعليه راح ابن الرشد يشيد بالاختلاف ويميز بين مستويات ثلاث في التأويل وتجاوبها مع مستويات المعرفة: **المستوى الأول هو مستوى الخطاب الذي يفهم على ظاهره بلا تأويل، والمستوى الثاني هو المستوى المختلف فيه بين من يرون ضرورة تأويله وبين من يرون عدم تأويله.والمستوى الثالث هو المستوى الذي سيتفق الجميع على ضرورة تأويله لأن حمله على الظاهر محال.**[2]

عند هذه المستويات التأويلية المناسبة للمعرفة، يمكن تحديد العلة الغائبة التي جعلت من الضعف السمة الظاهرة والقاهرة للمجتمع العربي الإسلامي، سواء من داخله بينه وبين حاكميه، أو خارجه في جدلية الآخر وقهره له وغلبته.

ما يعيشه المجتمع العربي الإسلامي /الدين من تردي المستوى المعرفي بجانبيه في إطار العولمة الغربية هو نتيجة أ-غياب محور الراسخون في العلم، وهي نقطة استثمرها الغرب واستوعبها بدرجة امتياز إلى درجة أنه يجامل المسلمين بتبرئة الدين الإسلامي من تخلفهم. وهو في تفوقه ما زال يدوس على مبادئهم بتواطؤ بيّن مع السلطة التي تحكم هذا المجتمع.ب-على مستوى السلطة التي تجاهر بالعلموية فمن سماتها تطبيق

[1] المرجع السابق، ص 62
[2] المرجع نفسه، ص 72

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

التعليمات الوافدة من الآخر القوي، ومن ضمنها ضرورة التخلص من كل من له ميولات دينية /إسلامية (إيديولوجية).مطبقة على صنف واحد هم الإطارات، وفي هذا المستوى يراعى ذوو الكفاءات العالية وأهل التخصص، سواء فقهي أو علمي مادي لأن إبعادهم يخدم بقاء الحاكم واستمرار التبعية، واستدامة التردي والرداءة والتخبط في الفوضى والجهل .

إن استثمار الخطاب الغربي لهذه الفوضى، والتظاهر بضرورة مساعدة الشعوب الصديقة للتخلص من هذه الفوضى هو استثمار في اتجاهين،أ-استقطاب الكفاءات التي أبعدت لأيديولوجيتها (الإسلامية) لفهم التوجهات الصحيحة لهذه المجتمعات . ب- واستثمار في زرع إيديولوجية مخالفة لهذه المجتمعات، من خلال محو كل ما يبقيها في صلة مع مبادئها المستوحاة من دينها الإسلامي.بإيعاز من الحاكم العلمانوي المنصّب عليها.

وعليه تظهر مجالات الفراغ المعرفي في هذه المحاجّة، ومن ثم وأمام غياب الراسخون الذين يستنبطون الكيفيات والمستويات والبراهين الدالة على حقيقة الطرح، يبقى الجنوح نحو العنف هو السبيل للحوار . وهو السبيل الذي سطر له الغرب لمحاجّة هذه المجتمعات في سلوكها السيئ باسم الدين، ثم ضرورة التخلص من هذا الدين العنيف من خلال وضع أسس تغيير هذا الخطاب العنيف . وهكذا وجدت هذه المجتمعات نفسها وهي ترتدي رداء الجهل حقيقة ما يخطط لها، والإقرار المكره بالتسليم للخطاب الغربي الذي استطاع أن يمكن الحاكم العلمانوي بتشجيع الخطاب العنيف داخل هذه المجتمعات والبطش باسم الدين على جميع المستويات.

أمام المعامل الكفء /أولوا الألباب والراسخون يبقى التوجس من النهوض المعرفي إلا في إطار ما يرسمه الغرب وما يمليه، وما دام العلمانويون يتنافسون على تنفيذ تعاليمه.أما على مستوى النخبة من الجانبين، فالحال لم يزحزح عن التنافر الشديد من منطلق التخطيء المتبادل، على اعتبار أن كل طرف منهما على صواب، بينما الآخر منحرف سواء بالتنكر للأصول و معاداة الدين، أو التطرف والرجعية ولا يزال الصدام المنفِّر على هذه الحال. فما هي العلة ؟

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

أزمة العقل العربي

وتجلت بين الأصوليين و من يطلقون على أنفسهم بالتنويريين اجتهادا منهم لتوظيف العقل في التوضيح والمُحاجّة وإن كان مصطلح "التنوير" مستوحى من الفكر الغربي، كون الإسلام دين صحيح ثابت المبادئ باعتراف هؤلاء التنويريين، دين عقل وعلم واختلاف وجدال ومنطق، ولا مشاحة في هذا من كلا الطرفين. يبقى الطرف الآخر يمجد هذا الاعتراف ويغيّب الإجراءات الضرورية في طرح خريطة تفاهم من أجل تجاوز الخلاف، ليكون الحجاج الحق مع الغرب في توضيح - وليس رسم - الصورة الحقيقية للدين الإسلامي.

إن الحديث عن الآخر /الغرب وهو محور الصراع، وقد تمكن من ناحية التكنولوجيا في جميع المجالات مع إعطاء حرية المعتقد كمبدأ رئيس، للتسلل بين الأجنحة المتصارعة داخل الرواق العربي الإسلامي وهو حق أريد به باطل، ففي عز الحضارة الإسلامية مثّل الإسلام عولمة السماحة والعفو وحرية المعتقد، وكفل للجميع حقه تحت المبادئ الدينية وحدودها، ولم يكن هناك أي طرح علني أمام صرامة وقوة القوانين الشرعية .فكان العلم والمنطق والطب والفلك. ثم حصلت القطيعة المخزية والتي لم يعرف بعدها نهضة حقيقية .في حين واصل الغرب بعد القطيعة كونه هو صاحبها وحامل مشعل الحضارة، من منطلق التواصل المزيف، فكان العقل هو السيد في هذا، وحقق ما كان يصبو إليه، وجعل مبادئه الوضعية هي السائرة والمناسبة للتمدن الذي يرجوه ومن ثم **كان اختزال الأنا / العربي الإسلامي في العقيدة وما يرتبط بها من تراث.و كان من الطبيعي والمنطقي أن يختزل الآخر /الغرب في العلم وما يرتبط به من تكنولوجيا،ليطرح السؤال كيف حققت أوروبا تلك النقلة الهائلة، من ظلام عصورها الوسطى إلى نور التقدم سؤالا مضمرا مكبوتا هو الآخر.**[1]

لم يخرج النزاع عن أهمية وضرورة استعمال العقل وتسيده على جميع المجالات، وهو بمثابة عملية المد والجزر بين التنويريين و الأصوليين، ففي حين يقر كلاهما بضرورة توظيفه تبقى الغلبة عصية عليهما.ولعل أهم مفصل خوّر الصراع، هو السند الغربي

[1] حرب علي، الاستلاب والارتداد. الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت ط1، 2002 ص 72

للتنويريين العرب على ضرورة تجاوز الأصل وهدم ركائز الثقافة، وقد جسد هذا الطرح نخبة واسعة ممن يحسب على الأمة العربية من مفكرين لا دنيين، فكانت نخبة الطليعة من أدباء الشعر والنثر والفكر، ذوي التوجه الإلحادي الماركسي، في حين أضعفت السلطة الحاكمة الأعلام الأصوليين ذوي الكفاءات القوية والخطابات المنطقية، والأطروحات الإعتدالية للتفاهم على شبكة قراءة جدية ومنطقية في الطرح والمعالجة لكن السند الغربي وموالاة السلطة كان المانع الحاد في تجسيد هذه الشبكة هذا من جانب، ومن آخر غياب دور السلطة وسندها التنويري في ميادين الحياة العلمية والعقلية .و أمام هذه الموالاة والحرص على هدم التراث والدين معا ما هو الامتياز المحصل عليه؟.

فلا تحديث للبنيات التحتية، ولا تحفيز للإبداعات العلمية، ولا تجسيد للمشاريع العقلية سواء على مستوى العلوم الاجتماعية والنفسية أو على مستوى العلوم الاقتصادية .ولا حلول جديدة للاستثمارات البنكية حتى على مستوى السياسي فشلت الديمقراطية /اختيار الشعب لمصيره وتراجع الغرب عن تشجيعها كونها أفرزت غلبة الدين والتراث وليس غيرهما. إذن أين يبدو الخلل في تحريك عجلة النمو الشاملة؟

إشكالية المنهج العقلي

لعلها تبدو في تفسير الظواهر المطروحة بجدية،ونحو تشارك فكري ايجابي بين الطرفين،غير أنّ عزوف بعض التنويريين بمساندة السلطة،التي تمثل المجتمعات الإسلامية عن هذا التوجه بإيعاز وضغط غربيين حال دون ذلك، ثم المفصل العصي الذي ما فتئ يتخلخل ظاهرا، هو إلغاء المتن القوي لمبادئ الدين الإسلامي فهو من جانب معطّل لعجلة التنمية الاجتماعية /النزوة الدنيوية في نظر الغرب، وهو في المقابل علاج لبعض المعضلات التي وجد فيه الغرب حلا لها .هنا تكمن الإشكالية الرئيسية .فالدين الإسلامي كدين سماوي صحيح ثابت وصفه خالقه بالنور، ومن ثم هو مجال للكشف والملاحظة والمحاجّة والجدل الصحيح القوي ببرهانه .وإن كان الغرب وممن يمثلونه يسعون لإطفائه، فهو لا يطفأ وعدا من الله. وهذا الإشعاع الذي يسطع في ديار الغرب هو ما أهاج شراستهم ضده .في المقابل يبقى أهل التخصص والعلم بهذا الدين مهمشين

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

مع كتاباتهم الفردية وأطروحاتهم الفكرية الساعية إلى لملمة الأطروحات المختلفة والداعية إلى الاستفادة من التكنولوجيا الممكن الحصول عليها.

كما أن الحديث على خلل المنهج العقلي، يجسده إقرار بعض المفكرين عن فشلهم في وضع شبكة فلسفية منطقية، مستوحاة من التراث وموسعة من شبكات الفكر الغربي.كطرح معادل نقدي بناء. وفي هذه النقطة لابد من الإشارة إلى أن الغرب أعاد قراءة تراثه من العهد القديم ليستنبط أحكام تفكيره وتوجهاته في تمديد النزوة الدنيوية ونشرها عبر العالم (عولمة المبادئ والأخلاق) بعيدا عما يسميه هو الوصاية الغيبية /الأبوية. ولو لُفّت عهود المجتمعات الإسلامية، لوجدت نخبة العهد الأول حتى عهد الأفول، قد باشرت القراءة والبحث في العلوم المختلفة مع طرح شبكات قرائية منهجية في جميعها. ومنذ عهد الأفول ثم النهضة المزيفة لم يتمكن المجتمع العربي الإسلامي لا من تحقيق ما يرجوه، ولا من ترجيح الجوانب العقلية في المستجدات الإنسانية والاجتماعية والسياسية وحتى الثقافية لم يتمكن من إرساء قواعدها ربما لضعفه أمام السندات المتعددة غربي، تغربي، سلطوي .

أزمة المثقف والفهم المنحرف:

لم يتوان كوكبة من المفكرين المحسوبين على التيار العلمانوي على اختلاف توجهاتهم من الوقوف موقف العداء المهذب للإسلام، تحت شعار النقد العقلي والواقعية الاجتماعية و ضرورة إنهاء حلول الدين، وإفساح المجال للوضعية وأقرب ما يحاجون به، هو إنهاء مهام القائمين على الإسلام كما أنهيت مهام الكنيسة .ولا عجب من توجههم هذا عندما يبدي أحدهم تعقيبا شديدا على شعار الإسلام هو الحل قائلا **هذا الشعار يثير أكثر مما يأتي بالمعالجات فأي إسلام هو المقصود . متهكما . إسلام غارودي أم إسلام الخميني أم إسلام الأزهر أم إسلام حسن ترابي ؟طبعا ليس الإنسان الاقتصادي هو المطلوب ولكن الإنسان العقائدي ليس هو الحل المنشود ...فلنسع إلى شعار أكثر علمانية.**[1]

لعل ما يتغافل عنه العلمانوي الناشد للعقلانية، وهو يهاجم أعلام ساهمت في الميدان الفكري والطرح الإسلامي بغض النظر عن قصورهم أو تجاوزهم، أنها لا تمثل

[1] أركون محمد، الإسلام والفكر، المؤسسة الوطنية لكتاب الجزائر، 1993، ص 82

الإسلام كبنية تشريعية عقائدية، تطرح العقل كآلية للاستنباط وتؤكد على فطرة الاختلاف .وكان الأولى على نقادنا العقلانيين منذ طه حسين إلى حامد أبو زيد ومحمد أركون وغيرهم أن يكونوا أكثر انفتاحا وتسامحا في الطرح، ليس في تجريد القرآن من قداسته وتدنيسه بقراءات ليبرالية تبدو بصيرتها ورسوخها فيه أقرب إلى الفهم السطحي، كونهم يقرون بأن الإسلام دين حيوي وواقعي راسخ في المجتمعات، لكن بقاؤه على هذا الجمود هو الذي يهز عقولهم. هنا تتبادر إشكالية أخرى أين هو بيت القصيد من هذا الصراع؟.

المطلوب إنسان اقتصادي وليس الإنسان العقائدي.إذا تم التسليم بتوجههم النقدي من أجل البناء واستدراك الطريق التنويري، كيف يفسرون رجال اقتصاد راسخون في علمه، وإسلاميون يسيرون قطاعات اقتصادية في دول غربية الشاهد أن إسلامهم لم يمنعهم من استثمار عقولهم وتوظيفها في مجال حيوي. وفي وسط غربي دون أية مضايقات ولا أطروحات نقدية تنقص من انتمائهم. في المقابل ماذا قدم العلمانويون في الجزائر وتونس سلطة ونخبة من تجديد وتحديث في بناء المجتمع، وما هو نتاجهم العقلي الاقتصادي العلماني مقارنة مع دول أروبية علمانية ضعيفة من حيث الموارد المادية والبشرية ؟

إن الوهم الذي يعيش فيه هؤلاء العلمانويون، كونهم يحملون ثقافة مغايرة وفهم الآخر وطرحه المناسب للرؤى الفلسفية والفكرية التي استنبطوها من تراثهم، والتغيير الذي وقع، والطرح من أعلامهم نحو توجه ليبرالي إباحي، فأما أن يفرض على ثقافتهم ومبادئهم فهو مجرد وهم، وتميزهم بالفهم والفكر وهم أيضا والشاهد فشل العلمانويين في دول شمال إفريقيا فشلا مزدوجا سواء على مستوى السلطة التي لم تنجح في بلورة مشروع علماني تنموي شامل وفي يديها كل الإمكانيات، وعلى مستوى النخبة التي باتت حارسا على بابها.

إن سعي المفكرين العلمانيين من أبناء الجلدة الحثيث للانقلاب على الثوابت الأصلية، كفكاك من القديم والانعتاق نحو الحياة المادية، ظاهره إصلاحي نابع من غيرة ومن اجتهاد علمي فكري جدي، وباطنه تغريبي مستوحى من الفكر الغربي المعاصر، ويمكن أن تقدم بعض المقارنات الفكرية في الطرح لتبين إدراك ووعي حقيقة هذا

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

السعي، ولا يعاب على قراءة الفكر الذاتي /الانتماء ونقده وتخليصه من شوائب التحلل نحو الجمود والغفلة، كما لا يعاب مناصفة من قراءة الفكر الغيري /الآخر، ونقده والاستفادة من أطروحاته الإيجابية في إطار التبادل الفكري والثقافي الذي يخدم الشعوب والإنسانية.

ولعل من بين المفارقات التي يطرحها الغربيون أنفسهم، ويناقضها بعض منهم بل يتقززون منها ويدعون إلى محاربتها، هي الطرح التكنولوجي كأيديولوجيا، بديلا عن كل ما يتعلق بالإنسان، ليختزل إلى مستوى مستهلك فقط. بينما توفر له الآلة كل ما يرغب فيه. وقبل التطرق إلى النقض والنقد القوين لهذا الطرح من طرف المفكرين الغربيين، تتبين بعض الإلتقاءات في الطرح وإن كانت من الجانب العربي مستوحاة من الفكر الغربي، كتقليد وخيار يعتقد به المفكرون العرب العلمانويون.

لقد أورد محمد أركون فكرة موضعة الوحي في التاريخ وضرورة الاستفادة من مقولة خلق القرآن من أجل تنشيط الفكر الإسلامي يقول **عندما دافع مفكروا المعتزلة عن مفهوم خلق القرآن كانوا قد أحسوا بالحاجة إلى دمج كلام الله في نسيج التاريخ، إذا ما استعاد الفكر الإسلامي اليوم هذه الفكرة فإنه عندئذ سوف يمتلك الوسائل الكفيلة بمواجهة المشاكل التي تنثال على الفكر المعاصر من كل حدب وصوب بمصداقية أكبر وابتكاريه أقوى وأعظم** [1]

أليس دمج كلام الله في نسيج التاريخ هو ضرب لمركز الكون وإغفال الخالق، ومن ثم يخضع القرآن لعملية تشريح وتفكيك وتصحيح، وعليه فهو يؤكد على مسعاه القرائي الوضعي وإخضاع الخطاب الديني إلى الشروط النقدية التي تخضع لها أي خطابات البشر. في المقابل يرى مشال فوكو في حفريات المعرفة وهو يقدم لها تعريفا ...**هي الوصف المنظر للخطاب باعتباره موضوعا مستقلا.**والخطاب هو... **ممارسة معقدة ومتميزة تخضع لقواعد وتحويلات قابلة للتحليل.** [2] فالاستقلالية والتحويلات التي يطرحها فوكو تكشف عن خلخلة جميع المراكز بحيث لا يبقى هناك امتياز لأي مركز.

[1] فوكو مشال، حفريات المعرفة،تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص 183 - ص274
[2] شوقي الزين محمد، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضا -المغرب، ط1، 2002 ص 194

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

وقد استوحى فوكو أفكاره من فريدريك نتشه الذي ضرب بقوة قواعد النحو زاعما أن اللغة استعارية، ولا يمكن حصرها و ضبطها بسياج يفقدها استقلاليتها، وأن اللغة سابقة عن الإنسان ومن ثم فهي حاملة للفكر وتتمتع بمنطق خاص بها. ولعل نيتشه هو المنظر للمقومات المعاصرة التي رسخت على مفهوم "الموت"، ويرى أن علاقة النحو بالموجود في رأيه علاقة تثبت، كون النحو يعقد اللغة (وهي متغيرة) وقد أثر هذا التثبت على التوجه الفسلفي الأنطولوجي الذي حاول إيجاد ثابت أطلق عليه الوجود/الكينونة، ووضعوه فوق العالم الحسي ليكون مصدر حياة أخرى وولادة المعنى والقيم.

وقد استنبط هذه المقولات من داخل اللغة وباسمها، ويرى أن الفكر الانطولوجي قائم على الاستعارات الميتة وليس على العقل. فكانت تفكيكه جاك دريدا التي تتحدث عن استقلالية الكاتب عن المكتوب **فالتفكيك إذا ينصب على قراءة النص.... قراءة اختراقية تخترق سمك النسيج الخطابي وتكسر النواة الصلبة التي تؤسس منطقه، وتحكم نسقه وتزيح المفاهيم والدلالات التي تطبع خصوصية كل نص مقروء، وتتجاوز خطاب الهوية والشمولية الذي يتضمنه النص ويدعو إليه**[1].لم يخرج رولان بارث عن منهج التفكيك الذي قادته جماعة تال كيل وأكد فضل جاك دريدا في تسطير المنهج والتجوال داخل النص /الخطاب **جاك دريدا كان من الدين ساعدوني على فهم كم كان الرهان (الفلسفي الإيديولوجي) لعملي الخالص ..لقد أخل توازن البنية، لقد فتح العلامة، إنه بالنسبة لنا ذلك الذي فك بداية السلسلة**[2].

فقد تبنى منهج اللغة المصارعة لكل خطاب، كما تبنى شعار مالارمي **كل منهج وهم**[3] حتى اللغة صارت أداة وهم، وتبوأت موضع نظر وتفكير، كونها كانت منطقه الخاص كما ردد ذلك مشال فوكو.

إن المنهج المزعوم هو مستوى التحرر داخل مجال الكتابة التي تحولت نحو الانحراف نهاية المعنى، النص الدال، انصهار الذات في اللذة وسيرها نحو نموذج شبه خيالي. كما يلعب مبدأ الحرية دورا هاما في التنسيق بين القارئ وتحديد مفصلات النص، والدفاع

[1] LONGUET Anne –marx des paradoxes du neutre –de la déprise a la méprise pp175/192 – communication –n 63/seuil -p180

[2] بارث رولان، درس في السيميولوجيا ، تر/عبد السلام بنعبد لعالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 1986، ص27

[3] BARTHES Roland - plaisir du texte –edition du seuil –p26

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

عن حرية القراءة بالنسبة لرولان بارث ليس طرحها على تأثير الانتساب، السلطات، الرقابات. فقرأ هو الخروج على الثوابت التي هي المؤلف التاريخ خارج كل فكرة للأصل.**كل اللغة السابقة والمعاصرة التي تأتي إلى النص وفق ملمح صوت انتساب، إرسال عفوي، لكن حسب صوت التشتت، الصورة التي تضمن للنص قانونا ليس لمنتوجproduit لكن لمنتوجيةproduction.**[1]

في كتابه "مفهوم النص" يتناول أبو زيد بالنقد والتحليل النص القرآني بصفته "منتجا ثقافيا" أنتجه واقع العرب التاريخي والاجتماعي خلال عهد النبوة... وبوصفه ممارسة خطابية هي في المنتهى فعالية بشرية تاريخية دنيوية، إذن دهرية ...[2] وهكذا تتواصل الإغراضات والتحاملات على المقدس الثابت في الإسلام، وهو دين في أعين هؤلاء المفكرين؛ ولفظ دين يحتمل الطقس والخرافة والعادة، ومن ثم يمكن تشريحه وتقويمه. لقد تواصل الجدل دون هدف عند المفكرين العرب والعرب المسلمين، في حين توجه الغرب بعدما شد وثاق هذا الجدل القاسم بين العرب نحو مخرج أيديولوجي، تجسد في التكنولوجيا كمحرك لامتناهي يلبي الرغبة اللامحدودة للإنسان والتكنولوجيا **تجيب ضمنا عن سؤال كانط. ما هو الإنسان؟ الإنسان رغبة يمكن إرضاؤها باستهلاك منتوجات صناعية...**[3]

فقد تمكنت من خلق نوع من المساواة بين جميع الناس بفضل الحاجات المصطنعة التي تخلقها **التكنوقراطية**. فتمحي بذلك كل الفوارق الإنسانية، من انتساب وانتماء وتاريخ وأديان من حيث الصلة بالإنسان وتأخذ الآلة هذه الصلة **ويكون في النهاية عندنا آلتان، واحدة تنتج وأخرى تستهلك.**[4]

تعلقت التكنولوجيا بمقولة الإنتاج والاستهلاك، حيث صار العمل الأدبي منتوجية وحصرت الإنسان في مجموعة لا متناهية من الرغبات المجسمة، كما ربطت سعادة الإنسان بقوة استهلاكه. لقد غابت المفاهيم والمقولات التي تقوّم الإنسان، وتعطيه هويته

[1] حرب علي، الارتداد والاستلاب، ص 96
[2] زيناتي جورج، رحلات داخل الفلسفة الغربية، دار المنتخب العربي، بيروت ط1، 1993، ص 78
[3] المرجع نفسه ص 99
[4] مصطفى عادل،فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا، التأويل من أفلاطون إلى غادامير، رؤية للنشر والتوزيع . القاهرة ط1، 2008 ص 404.

في إطار الشفرة الثقافية وما زال العرب والعرب المسلمون في حلقة صراع تتغذى منها القوى الغربية في وضع إستراتجية جديدة لإعادة تقسيم العالم الذي حصر في الخريطة العربية.

خاتمة:

لقد خلص هذا البحث إلى حلقة جدلية مستمرة، استمرار الصراع الجدلي والبراغماتي الغربيين أمام تشتت الفكر العربي /الإسلامي، وتغييب المصلحة العامة .وأمام هذه الثنائية الجدلية القوي/الضعيف، ترتسم مجموعة نقاط تؤجج تلك الثنائية لعل من أبرزها:

- حضور الغرب بقوة بفضل اتحاد مقدراته المعنوية والمادية، وتجاربه التارخية التي استفاد منها أيما استفادة .
- وضعف معسكر العرب /المسلمين بسبب صراعات مفتعلة وتشتتهم.
- لا يفتقد أي منهما للمكتسبات الفكرية والثقافية التي تؤسس للحياة المستمرة .
- الفارق الحضاري الواسع بين الغرب والعرب/المسلمين وقوة حضور الطرح الغربي الذي يكاد يشلّ كل المبادرات التنموية (الفكرية، الاقتصادية، الثقافية) لدى العرب /المسلمين .
- استثمار الغرب للصراع العربي الإسلامي حول إعادة النظر في المقدس من جهة، وتجادلهم حول الطرح والتصور الحضاري النهضوي المناسب لمجتمعاتهم، من أجل توسيع هوة الفارق بينهما،مع دعم للسلطة المستبدة وفئة المغربين.
- هذا بالإضافة إلى التحرز الشديد في التعاون والإمداد التكنولوجي، حتى تبقى السيطرة ثابتة والقفزة الحضارية المتوقعة للمسلمين غير صادمة.

قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع – دار الغوثاني للدراسات القرآنية،ط1 /2013م
2. زيناتي جورج، رحلات داخل الفلسفة الغربية، دار المنتخب العربي،بيروت، ط1، 1993م
3. حرب علي، الاستلاب والارتداد. الإسلام بين روجيه غارودي ونصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2002 م
4. مصطفى عادل، فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا، التأويل من أفلاطون إلى غادامير، رؤية للنشر والتوزيع . القاهرة ط1، 2008 م.
5. بارث رولان، درس في السيميولوجيا ، تر/عبد السلام بنعبد لعالي، دار توبقال للنشر المغرب، ط2، 1986

ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X

6. فوكو مشال، نظام الخطاب، تر:محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1984 م
7. فوكو مشال، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط2، 1987 م.
8. أركون حمد، الإسلام والفكر، المؤسسة الوطنية لكتاب، الجزائر، 1993 م
9. محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضا /المغرب، ط1، 2002
10. حامد نصر أبو زيد نصر، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 /2000م
11. longuet Anne –marx des paradoxes du neutre –de la déprise a la méprise pp175/192 – communication –n 63/seuil –
12. Barthes Roland - plaisir du texte –édition du seuil –1973